الباب الخامس

صدر فيه أبي تمام بعصره

١ — العصر

(ا) كان بدء العصر العباسى حدا فاصلا بين لونين من ألوان التاريخ فى الدولة الإسلامية .

ففى عهد الخلفاء الراشدين كان التفاعل بين عناصر هذه الأمة ، المتضاربة خُلُقا ، وطبعا ، وميولا . واستمر هذا التفاعل قويا فى عهد الأمويين . وكانت تهيئ لهذا التفاعل قوة الفاتح ، وسورة الدين . وكان الامتزاج سريعا ، وجِدّته أخاذة ، لا تكاد تدع للجماعات اختيارا فى مقاومته ، وتنبُّها إلى أجناسها وعصبياتها . وكان يغلب على هذه الأمم جميعا سلطان دين سمح ، آخذ بالنفوس ، وعدل محبوب يقوم به الخلفاء أول الأمر .

(ب) حتى إذا استيقظت العصبيات القديمة بين العرب ، فى عهد عثمان ، الخليفة الثالث ، واستحال الحكم إلى وظيفة تطلب للغُنْم ، ويعمل فى الدفع إلى الاستئثار بها إرث الماضى ، مما هو قبل الإسلام ، وسقط الخليفة تحت سيوف الثائرين ، اهتزت تلك المعانى العظيمة الدينية التى قام عليها نظام الحكم . ثم انهارت كما ينهار الصرح الشامخ ، وزُلزِل الإسلام وأهله ؛ زلزلة كادت تودى بدولته لولا يد الأمويين القوية ، التى أتاحت لهذه الدولة البقاء ، على أساس من الحزم والقوة والبأس ، أكثر من بقائها على أصول من الإيمان والحب .

فلم يهِن الإسلام فى الصدور ، ولكن وهنت فكرة قيام الدولة عليه ، واستمر الناس بأثر من الدفعة الأولى ، متجهين فى رعاية وحدة الأمة على مدد من التراث الدينى القديم ، ومن الاتجاه النفسى الذى خلقته تعاليم معلميهم الأُوَل من النبىّ ، والخلفاء ، والصحابة . يحفظه عليهم ماضربوه لهم من مثل فى الإيمان بما عملوا له . فاستمر الامتزاج والتفاعل قويين ، واتصل ذلك فى غير عبء بصرخات الخارجين على الجماعة بين لحظة وأخرى . إلا أن تسلط الأمويين ، القائم على معنى الملكية الدُّنيوى ، وذلك الخُلْف الذى كان يدب بينهم وبين آل بيت النبىّ ، وما كان ينتهى إليه هذا الخلف من جرائم تملأ التاريخ ، كان يلقى النور على استبداد تؤخذ به الناس أخذا .

كما أن عصبيتهم التي تعدّت العرب إلى غيرهم من الأجناس ، التي تعيش تحت إمرتهم ، أخذت تهدّئ من حدّة التفاعل ، وتهيئ لتميزات جديدة بين هذه الأجناس المختلفة . فإذا بالوحدة الدينية التي كانت تربط الأجناس تأخذ في الانحلال شيئا ، لتحل محلها قوّة أخرى هي قوّة حفظ النوع وحماية الكيان . فإذا بالفصائل ، والعشائر ، والأمم تضع المعنى الديني جانبا وتجعل نصب عينيها المعنى العنصري .

(ج) ويكون من هذا كله سقوط الدولة الأموية ، لتسمح بسقوطها لمعركة مقنّعة أوّلا ، تدور بين الفرس والعرب باسم بيت النبيّ . حتى إذا تغلب العباسيون وجد الفرس في ظل عرشهم ملجأ يعملون فيه على هدم السلطان العربي . وكان الخلفاءُ يحسون منهم ذلك ، فينكّلون بهم حفظا لعروشهم ؛ فأبو مسلم الخراساني ، والبرامكة ، والفضل بن سهل ، والأفشين لم يكونوا جميعا إلا طلائع هذه الحركات الخفية ، التي كانت تعمل في نفوس العناصر في ذلك الزمن .

ولقد بلغت هذه المعركة أشدّها في عهد المأمون ، إذ كانت قد بدأت تصرّح عن وجهها في محاولة الفرس نصر المأمون على الأمين ، وحفظه في خراسان لتكون الخلافة تحت سلطانهم . وشعر العرب يومئذ شعورا مبهما بما فقدوه بسقوط الأمويين ، وتحطيمهم بيد الفرس ، فكان ردّهم على ذلك تلك الثورات العارمة في معظم الأقطار الإسلامية ، التي اضطرت المأمون إلى استخلاف عليّ ابن موسى الرضا على ولاية عهده ، وحمله على قتل الفضل بن سهل ، والنزوح عن خراسان إلى بغداد . فسكنت الثورات العربية شيئا ، ولكن أخذت تستيقظ ثورات أخرى أعجمية ، كثورة بابك الخرّميّ سنة ٢٠١ . وأخذ الصراع يدور ثانية خفيا بين العرب والفرس . وليس شيء أشدّ حقدا من كل منها على الآخر .

ولكن سلطان العرب أخذ يضؤل ، وإنْ كُلِّفوا حماية أطراف الدولة ، والقيام على إخماد الثورات . واتضح هذا الخذلان بقتل المتوكل .

ومن هنا أخذت المعركة تسفر ، ولحق المتنبي آخر وجوهها ، فأنزل حقده ونقمته ، في عجلة وقسوة ، على قومه ، لما كان يرى من أنهم يستطيعون الخلاص من أعدائهم ، ولكنهم لا يعملون للخلاص . فيقول المتنبي :

وإنما الناسُ بالملوك وما ... تُفلِحُ عُرْبٌ ملوكها عَجَمُ
لا أدبٌ عندهم ولا حَسَبٌ ... ولا عهودٌ لهم ولا ذِمَمُ

فى كل أرض وطئتُها أمٌ تُرْعَى بعبـــد كأنها غـنم
يستخشن الخزّ حين يلبسه وكان يُبْرَى بظفره القـلم

ولحق أبو العلاء قومه ، وقد تمّت الهزيمة، ولم يبق إلا الحطام والأشلاء، فبكاهم بكاء اليائس، واتجه إلى فلسفة هزيمة عشيرته أمام الحياة . وكانت حياته لحياتهم فى أيامه صورة ومثلا .

أما أبو تمام فقد لحق الصراع إبان اضطرامه، والنفوس تغلى، والعرب يحسون يومئذ حاجتهم إلى الاستعانة بما يستعين به أعداؤهم من مادة، وسلاح، وعلم، وفن . فكان مغنى المعركة ، يتنقل بين ميادينها ، مضطربا بين اليأس والأمل، عاملا على التحصيل ما استطاع .

(د) وليس شىء حافزا فى صراع، شرا من حماية الذات وحفظ النوع، ولقد كان وجود هذا العصر كله رهنا بهذا الحافز ، ونتاج ذلك الصراع . فإن الحياة لا تحلو فى يوم حلاوتها يوم تهدّد ؛ وأثر هذا الشعور أبدا ، تهالك على الحياة وغلو فى حسها، وإغراق فى الإحاطة بها، وذهاب فى كل حس إلى أبعد غاياته، فى غير اتزان وفى أثرة .

وهذا ما يرى واضحا فى كل شىء فى ذلك العصر . تراه فى الحقد على الخصم، كما تراه فى الحب، وتراه فى طلب العـلم، وتراه فى الحرب . تراه فى إغراق فى المدح اليوم، وفى إغراق فى ذم ممدوح الأمس. وتراه فى تلك القسوة العنيفة فى معاملة الأعداء . وتراه فى الصلب على الأخشاب، والتمثيل بالميت . وتراه فى إحراق المدن وذبح أهلها ، وخفة هذه كلها على النفس ، والتلذذ الغريب بمرآها، وعدم تحرك أى شعور من رحمة .

كانت الدنيا يومئذ تعج بالحياة، وتقدر فيها النفس الحلو والمر قدرا مضاعفا، ولكن ليس فيها شعور من رحمة ، ولا معنى إنسانى إلا فى نفوس أولئك الذين باعدوا بين أنفسهم وبين العراك ، وقليل ما هم .

كان هذا العصر داميا . ويكفى أن تقرأ كتابا من كتب التاريخ لترى المعارك لا تكاد تقف ، وكان هذا العصر عالمـا؛ ونظرة فى كتاب كتاريخ بغداد تلقى فى الروع أن هـذه الأمة عن بكرة أبيها كانت تطلب العلم، وتتهالك فى طلبه . وكان هذا العصر غارقا إلى الأذقان فى تحقيق اللذة، جسمية وعقليـة ، يطلبها فى غير هوادة ، ويكب عليها فى استسلام ونهم . حتى فلسفت اللذة الجسدية ، وتعبد بها جماعة كالخزمية .

ولا تكاد تلوح بادرة من حس فى نفس أحدهم حتى يندفع وراءها ، فى غير تنبه إلى سواها حتى ليتضارب مع نفسه .

أما حطام هذه المعركة ، ومن خرجوا منها بخذلان وخيبة ، فمنهم الزاهدون واليائسون ، كأبى العتاهية .

(هـ) عصر مصطبغ بالدم وشعر مثله : وأبو تمام ثمرة هذا العصر بخيره وشره . فشعر أبى تمام مصطبغ بالدم كما كان عصره مصطبغا بالدم ، ولايكاد يثير شاعريته شىء كما تثيرها الحروب والدماء . وأجمل شعره وأعرقه فى الشاعرية ، هو ذلك الذى يصف فيه خرابا . أو تحريقا . وهو حين يغرق فى ذلك لا يكاد يمس قلبه معنى إنسانى .

(١) وإن فى شعره فى وصف عمورية لمثلا واضحا :

لقد تركتَ أميرَ المؤمنينَ بها ... للنارِ يوما ذليلَ الصخرِ والخشبِ
غادرتَ فيها بهيمَ الليلِ وهو ضُحًى ... يَشُلُّهُ وسْطَها صُبْحٌ مِن اللهبِ
حتى كأن جلابيب الدُّجى رغِبتْ ... عن لونها أو كأن الشمس لم تغِبِ
ضوء مِن النارِ والظلماءُ عاكفةٌ ... وظلمة مِن دخانٍ فى ضحى شحِبِ
فالشمس طالعةٌ مِن ذا وقد أفلتْ ... والشمس واجبة مِن ذا ولم تَجِبِ

ولا أظن شاعرا يُهيَّأ له فى وصف هذا الحريق أكثر مما هيئ لأبى تمام . ولو وقف عند هذا لقلنا شاعر يصف فلا عليه . ولكنه لا يقف عند الوصف ، بل هو يهلل لهذه النار ، ويهتف لهذا الخراب ، بروح حاقد ، الإنسان معه أبعد ما يكون عن إنسانيته :

ما رَبْعُ مَيَّةَ معمورا يُطيفُ به ... غيلانُ أبهى رُبًى مِن رَبْعِها الخربِ
ولا الخدودُ وإن أدْمِينَ مِن خجلٍ ... أشهى إلى ناظرى مِن خدّها التربِ
سماجةٌ غَنِيتْ مِنّا العيونُ بها ... عن كل حسنٍ بدا أو منظرٍ عجبِ
وحُسْنُ منقلَبٍ تبدو عواقبُهُ ... جاءتْ بشاشتُه مِن سوءِ منقلبِ

وأبو تمام فى هذا الحس النفسىّ بجمال هذا المنظر الوحشى ، مخلص يعبر عنه تعبيرا يهزّك ، بل هو يرضيك أيضا ، وتأخذك منه روعة الصورة . ولأبيات القصيدة جميعها ، ذلك الجمال الذى يحمل النفس على إعجاب بالشر ، وقبول لذلك الحقد الشرير الذى يملؤها ، واستساغة لمظهر من مظاهر الوحشية تأباه بقية من الخير فى الإنسان ، حين يخلص إلى نفسه ، وينفك عنه إسار ذلك الجمال

الشعرى للقصيدة شيئا . فإذا أردت لهذا علته عند أبى تمام ، وجدتها فى حماية الذات . وهى التى تستشفها ونتدرج إليها من وراء قوله :

وحسنُ مُنقَلَبٍ تبـــدو عواقبُـهُ جاءت بشاشتُه مِن ســوءِ مُنْقَلَبِ

وهى أكثر وضوحا فى قوله :

إن الحِمـامَيْنِ مِن بِيضٍ ومن سُمُـرٍ دَلَوا الحياتَيْنِ مِن ماءٍ ومن عُشُبِ

* * *

(٢) الإنسان مولع بالحياة يتعشقها ويعبدها ، ويتحسس مظاهرها حيث هى ، ودلالاتها حيث تكون . فيراها جمالا ، ويراها خيرا . فهو يرى الوردة الوادعة بين أشواكها الرادعة ، فيحس جمالا وشوقا ، وهو يطلبها حيث هى ، رجلا كان أو طفلا ، وما جذبه إليها إلا تلك الألوان التى تمثل الحياة بقوتها ، وبروزها فى صفحة الوجود . وهو يحب تلك الطراوة منها ، لأنها تشعره بحاجتها إلى حمايته ، وتظهره بمظهر القادر القاهر الحامى .

وهو يرى الأجمة المشتبكة ، والطود الراسخ ، والبحر يهدر ، فتروعه ، ويحس وهو فى الروع جمالا لاحد له . ذلك لا لشىء إلا لأنه رأى صورة من صورة الحياة والقوة ، تضعف إلى جانبها سطوته ، ويتبين إزاءها خَوَرُه ؛ فهو يرتاع لضعفه ، ويقدّسها لجبروتها ، ويحب منها هـذه الحياة العارمة ، والقوة الصارمة ، لأنه يحب الحياة ، وهو مفطور على هذا الحب .

وهو يشفق حين يرى قويا يتهدد حياته ، ويلحقه الرعب ، ويدفعه حبـه حياته إلى شىء من نسيان إجلال قوة غيره . فإذا أتيحت له الغلبة كان جبارا لا يعرف الرحمـة . ذلك لأن وجوده كان فى كفة القدر ، وهو أبعد من أن يتعشق ذلك المعنى العام للحياة ، دفاعا عن حياته الخاصة . فهو فرح طروب ، وهو قاس حاقد ، يبلغ حد الوحشية فى إشباع شهوته وإرواء غِلّه . وهذا الشعور الآخذ بنفسه ، يتحكم عنده فى تصوير الجمال ، وفى إخراج مثله العليا ، وفى تكييف مفهوم الخير .

وهذا هـو العامل العظيم الذى كان يعمل فى حياة أبى تمـام بوصفه فردا من أمـة بينت قبلا ما بين أجناسها . وهو أيضا العامل القريب الذى كان يعمل فى نفسه ، يوم كانت هذه الأمة تدفع عن أطرافها عدوا قويا يريد أن يلتهمها . فقد حضر أبو تمـام هذه الموقعة . كما يقـول صاحب الفخرى مع المعتصم .

* * *

(٣) قصة الأفشين تحرّك الدموع ، وتلين الصخر . ولا أعرف كيف لم تحرّك شاعرية أبى تمام إلا بما حركتها به ، من ذلك الحقد الذى يعافه الطبع السليم . وإن فى مجموع الصورة النفسية التى يتركها لنا التاريخ عن الأفشين ، روحا طيبا ، ودماثة خلق ، إلى جانبهما شىء من الطمع كان سبب نكال صاحبه . والقصة كلها تحرك شعورا من الرحمة ، جديرا بأن تتلقفه نفس شاعر فتثمر به ثمرة تبقى على الأيام خالدة : فيها تصوير للضعف الإنسانى ، الذى لا ينقمه الإنسان على صاحبه ، لأنه مقرون ببعض الوقار ، مصحوب بقبس من العظمة والنصر ، ولأن إجرام صاحبه يلابسه كثير من الشك ، ويخفف من أثره ريبة ماثلة .

ولكم كان أولى بأبى تمام أن يصوّر لنا هذا جميعا فى قصائده فيه ، وأن يخرج لنا منه بإنسان ، إلا يكن جديرا بالحمد ، فليس قمينا بالحقد المرير . ولكم كان خيرا له لو خلط فيه الدمعة بالنقمة ، فتخرج قصيدته متلائمة مع الصورة التاريخية .

وإن الأفشين لأخف عندى جُرْما من ما كبث شكسبير ، مع ما أسبغ شاكسبير على بطله من ظلال الرحمة ، وتخفيف الجرم . فعذر هذا عند شكسبير ، الضعف الإنسانى ، وعذر الأفشين عند التاريخ ما بينت فوق الضعف من أسباب البطولة ، وأخلاق تكبرها النفس . وما أشبه القصتين : ولكن أبا تمام كان ابن ذلك العصر الدامى ، المندرج فيه ، المأخوذ بما لا يؤخذ به البعيد عنه .

والمقارنة بين ما كتب أبو تمام فى هذا ، وبين ما كتبه ابن الأثير المؤرخ ، تعود بالخسار على الشاعر . قال أبو تمام ، وقد كان مدح الأفشين قبل ذلك :

جالتْ بِخَيْذَرَ جولةُ المِقْدارِ ... فأحالَهُ الطغيان دارَ بَوارِ
كم نعمةٍ لله كانت عنده ... فكأنها فى غُرْبةٍ وإسار
كُسيتْ سبائبَ لؤمه فتضاءلتْ ... كتضاؤل الحسناءِ فى الأطمار
موتورةٌ طلب الإلهُ بثأرها ... وكفى بِربِّ الثارِ طالبَ ثار
صادى أميرَ المؤمنين بِزِبْرِجٍ ... فى طيِّه حُمَةُ الشُّجاع الضارى
مَكْرًا بَنَى رُكْنَيْه ، إلَّا أنه ... وَطَدَ الأساسَ على شَفِيرِ هار
حتى إذا ما اللهُ شَقَّ غباره ... عن مستكنِّ الكفرِ والإصرارِ
ونحا لهذا الدينِ شَفْرَتَه ابنُ ... والحقُّ منهُ قانئُ الأظفارِ

ثم يمضى فيها الى أن يصل إلى وصف صلبه وإحراق جسده، فتتفجر شاعريته :

ما زال سِر الكفرِ بين ضلوعِه ... حتى اصطلى سِرَّ الزنادِ الوارِى
نارا يُساوِرُ جسمَه مِن حرِّها ... لهبٌ كما عصفرتَ شِقَّ إزارِ
طارت لها شُعَلٌ يهدّم لفحُها ... أركانَه هدما بغيرِ غبارِ
فصَلْنَ منه كلَّ مجمعِ مَفْصِلٍ ... وفعلْنَ فاقرةً بكل فقارِ
لله مِن نارٍ رأيتُ ضياءها ... ضاق الفضاءُ به على النُّظارِ
مشبوبةٍ رُفعتْ لأعظمِ مُشرِكٍ ... ما كان يرفعُ ضوءها لِلسارِى
صلَّى لها حيًّا وكان وَقُودَها ... ميتًا ويدخلها مع الفُجّارِ
وكذاك أهلُ النارِ فى الدنيا هُمُ ... يومَ القيامةِ جلُّ أهلِ النارِ
يا مَشْهدا صَدرتْ بِفرحته إلى ... أمصارِها القُصْوَى بنو الأمصار
رمقوا أعالِيَ جِذْعِه فكأنما ... وجدوا الهلالَ عشيَّةَ الإفطارِ
واستنشقوا منه قُتارا نشرُه ... مِن عنبرٍ ذَفِرٍ ومِسكٍ دارِى
وتحدثوا عن هُلْكِه كحديث مَن ... بالبذْوِ عن متتابِعِ الأمطارِ
وتباشروا كتباشُرِ الحَرمِيِّ فى ... قُحْمِ السنين بأرخصِ الأسعارِ
كانت شماتةُ شامتٍ عارا فقد ... صارت به تَنْضُو ثيابُ العارِ

ما أروع هذا الشعر وما أجمله ! إنه ليدفع الإنسان الى حبه على الرغم من قسوته وما فيه من عار . وتنبه ذهن أبى تمام ذلك التنبّه ، البادى فى بيته الأخير ، الى ذلك العار الناشئ عن شمانته بميت ينبئ عن قدرة ، وعن حب للتملص من ثقل قد يلزمه له التاريخ . وظنى أنه كان يفضل التخلص منه ، لو لم يكن يدفعه إليه ذلك الشعور الباهظ ، الذى كان يحس به كل فرد يومئذ من هذه الأمة ، من جراء تلك المعركة الناشبة بين الأجناس .

* * *

أما فن ابن الأثير المؤرخ ، فى هذه المأساة ، فخير من فن الشاعر . قال ابن الأثير عن الأفشين وهو سجين : "وكان (الأفشين) قد أنفذ إلى المعتصم يطلب إليه من يثق به ، وأنفذ إليه (المعتصم) حمدون بن إسماعيل . فأخذ (الأفشين) يعتذر عما قيل فيه ، وقال : قل لأمير المؤمنين : إنما مثلى ومثلك كرجل ربى عجلا حتى أسمنه وكبر ، وكان له أصحاب يشتهون أن يأكلوا من لحمه ، فعرضوا بذبحه فلم يجبهم . فاتفقوا جميعا على أن قالوا : لم تربى هذا الأسد ، فإنه إذا كبر رجع إلى جنسه ؟

فقال لهم : إنما هو عجل. فقالوا: هذا أسد، فسل من شئت . وتقدّموا إلى جميع من يعرفونه، وقالوا لهم : إن سألكم عن العجل فقولوا له : إنه أسد . وكلما سأل إنسانا، قال : هو سبع ... فأمر بالعجل فذبح ... وإنى أنا ذلك العجل . كيف أقدر أن أكون أسدا . الله الله فى أمرى .

قال حمدون: فقمت عنه، و بين يديه طبق فيه فاكهة، قد أرسل به المعتصم مع ابنه الواثق، وهو على حاله، فلم ألبث إلاقليلا حتى قيل إنه يموت، أوقد مات. فحمل إلى دار إيتاخ فمات بها، وأخرجوه وصلبوه على باب العامة، ليراه الناس . ثم ألقى وأحرق بالنار" .

يذكر هذا ابن الأثير بعد ذكر الشكوك التى حامت حول تُهَمَتِه ، و يعقب عليه بأشياء تدفع شيئا من تهمة الأفشين . والقصة، كما نقلها ابن الأثير، يجرى فيها روح إنسانى ملىء بالرحمة، وتنطبع بطابع فنى يجعل قصيدة أبى تمام إزاءها ألعوبة من الألاعيب الفظّة، حين يقصد إلى الحكم على فنه فيها . وتأمل تلك الإشارة إلى طبق الفاكهة يحضره الواثق إليه بأمر المعتصم، وذكر الموت بعدها مباشرة ثم الصلب والإحراق . يقابل ذلك عند أبى تمام قوله فى قصيدته :

يا قابضاً يدَ آلِ كاوُسَ عادلاً أَتْبِعْ يميناً منهُمُ بيسارِ
أَلحِقْ جبيناً دامياً رمَّلتَهُ بتفًا وصَدْرًا خائناً بِصدارِ
واعلمْ بأنك إنما تُلقيهُمُ فى بعض ما حَفَروا من الآبارِ
لو لم يكِدْ للسامِرِىّ قبيلُهُ ما خار عِجلُهُمُ بغيرِ خُوَارِ
وثمودُ لو لم يُذْهِنوا فى ربِّهم لم تُرْمَ ناقتُهُ بسهمِ قُدارِ

هذه الحرارة فى طلب التنكيل بأعداء الخلافة قد تؤخذ على أنها تصوير لشعور الخليفة من أعدائه . وهو ما لا يقره على الأقل ظاهر الأمر من التاريخ، كما رأينا فى إرسال الواثق بطبق الفاكهة إلى الأفشين فى سجنه .

فى تصوير ابن الأثير للأحداث غاية ما يطمح إليه شاعر كأبى تمام . ولكن أبا تمام لم ير إلا الجريمة، ولم يصوّر إلا النار تلتهم جسد هذا البطل الذى أراح الخلافة من شر ظل مصلتا عليها اثنين وعشرين عاما .

ذلك الروح الوحشى الذى أملى على أبى تمام شعره ، هو ابن ذلك الصراع الرهيب الذى كان مشبوبا بين الأجناس يومئذ فى الدولة الإسلامية. وهو الذى كان يكوّن أخلاق الناس، ولا سيما الشعراء الذين يقولون بانفعالات تفوق انفعالات غيرهم من الناس .

٢ — شعر يقارب المادّية

(١) آقتران مظاهر الجمال الحسى بمظاهر القبح النفسى : وهذا الذى باعد بين فن أبى تمام و بين المثالية، قرّب بينه و بين الحسدية . فإنّ هذا العصر، كما قلت، كان عصر إغراق فى كل شىء، وحس مضاعف بالحياة . فهو إن عدم هذا الجمال النفسى، والآنسجام الخلق، لم يعدم جمالا من نوع آخر، يأتى من قبيل الرؤية ، والسمع، والشم، والحواس جميعا . إنّ أجمل ما صور به مصور عصرا من العصور قول مستشرق فى وصف حياة الناس فى هذا العصر : "كانت الحياة قصيرة ولكنها حلوة"[1] .

فشعور الناس إذ ذاك بعزة الحياة وغلوها ، كان دافعا على التهالك عليها ، وانتهاب لذائذها و جمالها . و إنك لترى أثر هذا فى شعر أبى تمام فى ذلك التصوير المنتشى لمظهر من مظاهر الرهبة قد لا تستسيغه العين، ولا يرضاه الحس، مقترنا بمظهر من مظاهر الجمال التى تمس القلب مسا، وتحمل إليك مع الجفوة القاسية أريحية صافية، تخفف من وقعها فى النفس . و إنك لتستطيع أن تجد هذا واضحا فى هذه الأبيات من قصيدته البائية التى ذكرت منها شيئا . يقول :

ما ربعُ ميَّة معمورا يُطيفُ به ... غَيْلانُ أبهى رُبًى من رَبْعها الخرِبِ
ولا الخدود وإن أُدمِينَ من خجلٍ ... أشهى إلى ناظرى من خدها التربِ

ويقول :

لبَّيتَ صوتا زِبَطْرِيًّا هَرَقْتَ له ... كأسَ الكرى ورُضابَ الخُرَّدِ العُرُبِ
عداكَ حُرُّ الثغورِ المستضامةِ عن ... بَرْدِ الثغورِ وعن سَلْسَالِها الحَصِبِ

ويقول :

والحربُ قائمةٌ فى مأزِقٍ لجِبٍ ... تجثُو الرجالُ به صُغْرًا على الرُّكَبِ
كم نِيلَ تحت سناها من سنا قمرٍ ... وتحت عارِضِها من عارِضٍ شنِبِ
كم كان فى قطعِ أسبابِ الرِّقاب بها ... إلى المخدَّرةِ العذراءِ من سببِ
كم أحرَزَتْ قضُبُ الهندىِّ مُصْلتَةً ... تهتزُّ، من قُضُبٍ تهتزُّ فى كُثُبِ
بِيضٌ إذا انتُضِيَتْ من حُجْبِها رَجَعَتْ ... أحقُّ بالبِيضِ أبدانًا من الحُجُبِ

(١) Lagacy of Islam.

فانظر كيف قرن كل صورة من صور الخراب والحرب والدمار ، بصورة من صور الجمال ؟ وهو فيها جميعا يستعين بوصف المرأة وجمالها . فيذكر فى الأول بحب ميّة وغيلان ، ويفجر بقصتهما ذلك النبعَ من الشجن الذى لا ينتهى ما دام الإنسان إنسانا ، ويشير إلى الثغر الشنب ، والمخدرة العذراء ، والقضُب المهتزة فى الكُثُب ؛ يستعين بها جميعا على تحقيق الجمال لهذا الوصف الرهيب للنار المندلعة ، والحرب الوارية . وفى هذه الأبيات جميعا فوق ما بينت من اقتران القبح النفسى بالجمال الحسى ، من البديع ، والجناس ، والطباق ، ومراعاة اللفظ ، محاولةً أخرى من محاولات تحقيق الجمال بأساليب لفظية ، أقرب إلى تحقيق الجمال الجسدى منها إلى تحقيق جمال الروح . ترضى الأذن والعين ، وأثرها فى القلب ليس مباشرا ، ولكنه أثر من اهتزاز الحواس .

ذاك معنى من معانى إلهام الحياة ، ومحاولة التعبير عنها بقدر الاستطاعة ، فى حدود ضيقة من وحدة البيت ، ووحدة القافية ، واختراع المعانى .

وهناك معنى آخر يتصل بهذا ، ويؤلف ناحية هامة من نواحى فن أبى تمام . وذلك هو حس جمال الطبيعة .

(ب) حس أبى تمام بجمال الطبيعة : يقول أبو تمام فى وصف الربيع :

رقّت حواشى الدهرِ فهى تمرمرُ ... وغدا الثرَى فى حَلْيِه يتكسرُ
نزلتُ مقدمةُ المَصيفِ حميدةً ... ويدُ الشتاءِ جديدةٌ لا تُكْفَرُ
لولا الذى غرسَ الشتاءُ بكفِّه ... قاسى المصيفُ هشائما لا تُثْمِرُ
مطرَ يذوبُ الصحوُ منه وبعده ... صحوٌ يكاد من الغضارةِ يقْطُرُ
غيثانِ : فالأنواءُ غيثٌ ظاهرٌ ... لك وجهُهُ والصحوُ غيث مضمَرُ
وندًى إذا آذهنت به لِمَمُ الثرى ... خِلتَ السحابَ أتاه وهو مُغَدِّرُ

* * *

اولَا ترى الأشياءَ إنْ هى غُيِّرتْ ... سَمُجَت وحُسْنُ الأرضِ حين تَغَيَّرُ
يا صاحبىّ تقصّيا نظريكما ... تَرَيَا وجوهَ الروضِ كيف تصوَّرُ
تَرَيَا نهارا مُشْمسا قد زانَهُ ... زهرُ الرُّبَا فكأنما هو مقمرُ
دنيا معاشٌ للورى حتى إذا ... حَلَّ الربيعُ فإنما هى مَنْظَرُ
أضحتْ تصوغُ بطونُها لظُهورها ... نَوْرًا تكادُ لهُ القلوبُ تُنَوِّرُ

مِن كل زاهرةٍ تَرَقْرَقُ بالنَّدَى فكأنها عينٌ إليك تُحَدِّر
حتى غدت وَهَداتُها ونِجادها فَتَنَيْن فى حُلَلِ الربيع تَبَخْتر
مُصْفَرَّة محمرة فكأنها عُصُب تَيَمَّنُ تارةً وتَمَضَّر
مِن فاقعٍ غضِّ النباتِ كأنه دُرَرٌ تُشَقَّقُ قبلُ ثم تُزَعْفَرُ
أو ساطعٍ فى حُمْرةٍ فكأنما يدنو إليه مِن الهواء مُعَصْفَرِ
صِبْغُ الذى لولا بدائعُ لطفِه ما عاد أصفرَ بعدَ إذ هو أخضر

هذا الحس الرائع بجمال الطبيعة، المستقر فى أعماق نفسه، وتلك الريشة القديرة البارعة فى التصوير، وذلك الإدراك للألوان والأضواء؛ كل أولئك كونت صورة للربيع لم تحظ العربية بمثلها قبل أبى تمام أو بعده على ما أعرف. أبو تمام يوم قال هذا، كان متأثرا بذلك الحس المضاعف للحياة وتقديرها. وكان اليه، متأثرا بفطرة تميزه عن غيره من الشعراء فى توجيهه هذا الاتجاه نحو الطبيعة. وهنا يستطيع الانسان أن يلمس فن أبى تمام السامى، البعيد عن التأثر بتلك المؤثرات النفسية الخاصة، التى تحدد عنده معنى الخير والشر، وتكيف الخلق.

وأبو تمام شديد الحس بجمال الطبيعة، حسا يخالطه حتى لا يكاد يتركه فى قصيدة. فهو لا يكاد يلمح فرصة يمكن أن يزج فيها بالطبيعة حتى يفعل. فإذا وصف جوادا قال:

يَدٌ يُسْتَذَلُّ الدهرُ مِن نَفَحاتِها ويَخْضَرُّ مِن معروفِها الأُفُقُ الوَرْدُ

وإذا أراد أن يصف رخاءه قال:

حتى إذا روضَى تغنَّى بِهِ ذُبابُهُ فى مُونِقٍ زاهِرِ

وإذا تحدث عن جمال وقع العطايا قال:

وأحسَنُ مِن نَوْرٍ تفتّحه الصَّبا بياضُ العطايا فى سوادِ المطالبِ

وإذا دعا لدار حبيبته قال:

لا مَرَّ يومٌ واحِدٌ إلا وفِى أحشائِه لِمحلَّتيك غمامُ
حتى تُعَمِّمَ صُلْعُ هاماتِ الرُّبا مِن نَوْرِهِ وتأزَّرَ الأَهضام

وهكذا يمازج جمال الطبيعة نفسه فلا يكاد يخلص منها.

وحس أبى تمام بالطبيعة لا يقف عند الوصف، ولكنما يتعداه إلى أثر جمالها فى النفس فيقول:

* نَوْرٌ تكاد لهُ القلوبُ تُنَوَّر *

وشعره فيها ليس ذلك الشعر القائم على الاندفاع ، و إرسال النفس على سجيتها ، و إنما هو وصف المتأمل ، الذى يسلط عقله على حسه ليتبينه ، وينظر فيه . فيقول بعد فكرة :

لولا الذى غرس الشتاءُ بكفّه قاسى المصيفُ هشائما لا تُثْمر

ويقول :

غيثان : فالأنواءُ غيثٌ ظاهرٌ لك وجهُهُ والصحوُ غيثٌ مضمَرُ

ويقول :

أَوَلا تَرَى الأشياءَ إنْ هى غُيِّرتْ سُمُجَتْ وحُسن الأَرض حين تَغَيَّرُ

٣ — أثر العنصرية وثقافة العصر

وأثر آخر من آثار العصر ، هو إصرار أبى تمام على استفتاح كثير من قصائده ببكاء ديار الحبيبة ، ومخاطبة الطلول ، برغم أنه زعيم المحدثين فى الشعر العربى . وكأنما كان يتحدى بذلك مذهب أبى نواس ، تحدياً دافعه العصبية للعرب على العجم .

وكذلك وصف الرحلة إلى ممدوحه ، وذكر الصحراء والآل والظلام ، و إغراقه فى ذلك أحيانا إغراقا يقارب بين شعره والشعر الجاهلى .

وأما تلك الصلة بين فنه وعصره ، العالِم ، المثقف ، المتفاسف ، فتمثُّلُ فى طلبه المعنى الغريب طلبا مبالغا فيه ، واختياره اللفظ ، و إشارته الى بعض المذاهب الفلسفية ، كالجهمية ، والجعفرية ، واستخدام بعض ألفاظ الفلسفة ، كالجوهر والعرض ، وضربه الأمثال بأحداث فى التاريخ ، والرجوع إلى القرآن فى كثير من شعره ، والتأثر بالبديع اليونانى ، وفى محاولاته فى أغلب شعره إرضاء العقل مع القلب .

٤ — أبو تمام مؤرخ عصره ومصوره

(١) ولم يقع حدَث هام فى تاريخ الأمة الإسلامية فى حياة أبى تمام ، إلا سجّله ، وتغنّى به فى شعره : فإذا هو جمت ثغور المسلمين قال ، و إذا غزا المأمون الروم قال فى ذلك شعرا ، و إذا انقسم الناس على أنفسهم قال ، واذا خرج خارج فى الدولة قال ، واذا فتح المعتصم عمّورية قال ، واذا مات من العرب عظيم قال ، واذا أخذ عدو من أعداء الدولة قال ، وهكذا حتى إن معظم شعره يتصل بالتاريخ اتصالا وثيقا ، ويبدى لنا صفحة منه فى صورة ناصعة ليست فى أسلوبها تشبه أسلوب المؤرخين ، ولكنها تمتاز بالبسط وطول النَفَس ، وتبيين الانفعالات النفسية التى كانت

تعمل فى نفوس قومه يومئذ . بل إن شعره يتناول أحيانا تفاصيل لا يمسها التاريخ كما فى وصف الخلاف الناشب بين أحياء من تغلب، يفصّله فى قصائده فى مالك بن طوق .

نخدم أبو تمام من هذه الناحية التاريخ، حتى ليكمل شعره كتب التاريخ ، مع أن التاريخ لم يعن بأبى تمام العناية اللائقة بسيد شعراء العربية .

والحق إن حياة أبى تمام قد امتزجت بالتاريخ العام ، واختلطت به طوعا وكرها، حتى كونت منه جزءا . وكما كيّف التاريخ بموجاته تلك المبادئ الأولى النفسية والخلقية التى انشعب منها فن أبى تمام وقوانينه الخلقية، كذلك كوّن ناحية موضوعية هامة فى شعره . ذلك إن أبا تمام يلخص فى حياة الأمة العربية عهدا لا يلخصه غيره . فهو ظاهرة من ظواهر حياتها، أشبه شىء بالعضو من الجسم، إذا انفصل عنه نقص شيئا .

(ب) وما زالت الأمم تعتلج صدورها بالألم والأمل، حتى تنجب شاعرا من صميمها يعبر عن بنات نفسها . وإن فى شعر أبى تمام صورة لنفسية العرب يومئذ، بما فيها من اضطراب لم يصل بها إلى حدّ القلق المحطم اليائس . هو صورة حية لهم بما فيهم يومئذ من طموح، وعمل للاستفادة مما ورثوا عن الأمم التى غلبوها؛ هو صورة للذكاء العربى بعد أن مد يده إلى آثار السلف، هو صورة ماثلة لذلك الاستشراف الذى كانت تستشرفه العرب إلى قوة كادت تفلت من أيديهم. فهو ذاهب هنا، وهو ذاهب هناك، يمجد العربىّ القوى، ويتغنى بتلك البطولة التى تأنس إليها النفس العربية، وتمثّل فيها صورة ماضيهم المحبوب، العزيز عليهم بمثله وأساطيره، فى عهد يكاد ينفلت فيه زمام الأمر من أيديهم . هو صورة للعرب إذ ذاك، وهم لا تزال فيهم بقية من إيمان بفضل قوة قد ترجع إليهم النفوذ والسلطان .

(ج) أبو تمام حلقة فى تاريخ الأمة العربية لو أسقطتها لأحسست الثغرة الهائلة فى تاريخها بين حلقتين . إننا نستطيع أن نستغنى عن أبى نواس ، فنننى شعره من العربية ، فلا نكاد نشعر إلا أننا فقدنا عرضا من الأعراض ، ولونا من ألوان العهد . ولكنا لا نشعر أننا فقدنا جوهرا .

أبو تمام خطوة يجب أن تسبق المتنبي وتلحق مُسْلما، والمتنبي خطوة يجب أن تسبق أبا العلاء، وأبو العلاء نهاية اليأس والبؤس المفلسف ، والجهد المحطوم لشعب تعبَ، وحارب وانتصر، حتى إذا خيل إليه أن أوان جنى الثمار قد حل ، لم يجد بين يديه شيئا .

لذلك أصغى العرب إلى أبي تمام، وأنصتوا لأغنيته، ووجدوا فيه صورة نفوسهم يومئذ فغلب على أيامه، وكسف ما يزيد على خمسمائة شاعرا كما يقول ابن رشيق. أما البحترى فكان أشبه بالظل للصورة، يكملها، ويعبر عن وجودها، ولكنه لا يغني عنها. إن الأمم تتنفس فى بعض الأفراد.

يقول الصولى فى كتابه أخبار أبي تمام[1]: "حدثنى أحمد بن يزيد المهلبي قال: سألت أبي عن أبي تمام، وقد سمعني أبي وأنا ألاحى إنسانا فى أبي تمام، فقال لى: ما كان أحد من الشعراء يقدر أن يأخذ درهما واحدا فى أيام أبي تمام. فلما مات أبو تمام اقتسم الشعراء ما كان يأخذه".

(١) أخبار أبي تمام للصولى (ورقة ٤٨).